بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

أستاذ الأدب العربى بآداب القاهرة والمشرف على البحث

يصحح هذا البحث ما كان قد استقر فى نفوس كثرة الباحثين من أن الشعر العربى ظل فى عصر صدر الإسلام ثابتا عند موضوعاته ومعانيه القديمة، وأن الإسلام لم يخلف فيه آثارا واضحة إلا بعض خيوط ضئيلة مبثوثة فى قصائد شعراء المدينة، أما من وراءهم من شعراء نجد وغير نجد فقد ظلوا لا يتحولون ولا ينحرفون بأشعارهم عن صورة الشعر الجاهلى وما عبر عنه من مشاعر وأحاسيس وأفكار وأخيلة.

وكأن الشعراء حينئذ لم يمس الإسلام قلوبهم ولا نفوسهم مع تحولهم من الحياة الوثنية المادية إلى حياة الدين الحنيف الروحية، ومع تلاوتهم للقرآن الكريم وما يصور من عظمة الله وجلاله، ومع استئصال الإسلام لما كان فى حياتهم من رذائل وآثام، ومع إحيائه لضمائرهم واستشعارهم مراقبة الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ومع تبتلهم إليه وعباداتهم ورفضهم لعرض الدنيا الزائل انتظارا لما عنده من النعيم الدائم، ومع جهادهم فى نشر الإسلام وبذل أرواحهم فى سبيله مخلصين صادقين.

وفى ذلك مخالفة صريحة لطبائع الأشياء، إذ لا يستطيع أحد أن ينكر أن للأحداث الجسام آثارا عميقة فى حياة الناس ما تلبث أن تترك ظلالها وأصداءها فى شعرائهم وما ينتجون من شعر، وهل الشعر إلا تعبير عن حياة الناس وكل ما يؤثر فيها من أحداث . ولم يكن الإسلام حدثا جسيما فحسب، بل كان حدثا خطيرا فى حياة العرب الروحية والاجتماعية والسياسية، فقد أخرجهم من عالم التعبد للأوثان وقوى الطبيعة إلى عالم التوحيد والإيمان بالكائن الأعلى مدبر الكون

ومنشئه، ومن عالم البغى والظلم والعدوان واقتراف الآثام إلى عالم الأمن والعدل والمساواة والأخلاق الفاضلة، ومن عالم التشتت فى وحدات قبلية متنابذة إلى عالم التجمع فى أمة واحدة متكافلة متعاونة يشد بعضها بعضا كالبنيان المرصوص.

وطبيعى أن يترك ذلك كله آثارا بعيدة فى نفوس العرب وأن يدفعهم إلى أنحاء جديدة من الإحساس والشعور والتفكير، إلا أن تكون عوائق تصدت لهم وصرفتهم عن الإسلام ودعوته وهداه، وهو ما لم يحدث، إنما الذى حدث أنهم آمنوا به أخلص الإيمان وأصدقه، وقاموا دونه يحمونه بسيوفهم وأرواحهم، حتى إذا أضاءت أقباسه فى جميع أرجاء الجزيرة حملوها إلى أقطار الأرض فى الشرق والشمال والغرب.

ليس من شك إذن فى أن العرب قد تأثروا بالإسلام تأثرا عميقا، يستوى فى ذلك الشعراء وغير الشعراء، وما كان الشعراء ليحرموا هذا التأثر، وهم يمتازون بدقة الحس ورقة الشعور وبتهيئهم دائما لتلقى الانطباعات من عصورهم وبيئاتهم. وكأنما غابت كل هذه الحقائق عن كثرة الباحثين فى أدبنا العربي، فإذا هم يرددون أن روحانية الدين الحنيف لا تظهر فى شعر صدر الإسلام ظهورا بينا، وهو ترديد مرده - فى رأينا - إلى أنهم لم يطلعوا اطلاعا كافيا على مادة هذا الشعر ولا أحاطوا بها إحاطة دقيقة.

وقد رأى السيد النعمان القاضى أن يدرس جانبا من هذه المادة الغزيرة، محاولا أن يكشف فيه عن التأثيرات الإسلامية التى لم يتبينها هؤلاء الباحثون، واختار شعر الفتوح الإسلامية موضوعا لدرسه، ومضى يستقصيه فى مظانه الكثيرة من أدبية وتاريخية وجغرافية، باذلا فى ذلك كل ما يملك من قوة وجهد ووقت، غير حافل بعناء ولا بمشقة، حتى إذا استقصاه استقصاء دقيقا أخذ يخضعه للدرس العلمى المنظم، واضعا بين يديه تاريخ الفتوح ووقائعها الكثيرة ونافذا إلى تذوق الشعر ونقده وتحليله ورسم شخصيات الشعراء رسما دقيقا، وكان كثير منها مجهولا لمؤرخى الأدب العربى أو كالمجهول.

وقد استهل البحث بدراسة مفصلة للفتوح فى صدر الإسلام وما تطاير فى وقائعها من أشعار كثيرة، مقارنا بين ما نظم منه فى مختلف الميادين، شرقية

وشمالية وغربيـة، من حيث بيئاته الجديدة وظروفها المختلفـة، ومن حيث تسجيله للأحداث والمعـارك، ومن حيث وفـرته وقلته وحظوظ القبـائل المضرية واليـمنية، واختلاف هذه الحظوظ باختلاف مواهبها الشعرية.

ثم درس شعراء الفتوح دراسة قـوية وزعهم فيها على ثلاث طوائف: طائفة كانت تصوغ الشعر وتنظمه فى الجاهلـية قبل دخولها فى الإسلام، وطائفة لم تكن تصوغـه ولا كانت تنظمـه قديما، فـقد أنطقـتها به وأسـالته على لسـانها الفـتوح ومعاركها الدائرة، وطائفة لم تعرف أسماؤها ولا تبين الرواة أشخاصها، واتخذ من عمرو بن معد يكرب الزبيدى مثالا للطائفـة الأولى وصوّر شخصيته تصويرا تاما، كما اتخذ القـعقاع بن عمرو التميمى مـثالا للطائفة الثانية مبرزا فـيه صورة الشاب العربى المسلم الذى تمثل أشـعاره استبساله الـعنيف فى سبيل عقيـدته وترامیه على حياض الموت ابتغاء رضوان الله وحسن مثوبته.

وأخذ بعد ذلك يدرس شعـر الفتوح مستنبطا مقوماته وانطبـاعاته وخصائص معانيـه وأساليبه، ولاحظ شيـوع الأراجيز والمقطوعات القـصيرة فيه وفـاء بحاجة المجاهدين إلى أناشيد قصيرة تستثير حـماستهم وتشعل حميتهم، كما لاحظ تطورا واضحا فى موضوعاته القديمة بتأثير الدوافع الإسلاميـة التى رافقتها وما صبته فيها من إشعاعات روحـية. وتبين بجانب ذلك موضوعات جـديدة لم يكن للعرب بها عهد، فى مقـدمتها حنين مؤثر كان يعـصف بقلوب هؤلاء المحاربين حين يذكرون أوطانهم فى الجزيرة ومن تركـوا فيها من أهليـهم وذويهم، ووصف لبعض مظاهر الطبيعة وألوان الحضارة فى أوطانهم وبيئاتهم الجديدة.

ووقف طويلا عند الطوابع الإسلامية فى أشـعار هؤلاء الفاتحين، وما أذاعوا فيها من روح الإسلام ومثاليته، وألفـاظ القرآن الكريم ومعانيه ودعوته إلى التفكير فى خلق السـموات والأرض والـعظة بالأمم الدائرة، حتـى إذا أكمل تصـوير هذا الجانب تصـويرا دقيـقا بسط الحـديث فيـما ساد هذه الأشـعار من طوابع شـعبـية لاشتراك ألسنة كـثيرة فيهـا معروفة ومجـهولة، ولدورانها فى قصص شـعبى كانوا يحكونه عن الأبطال والفـرسان الفاتحـين، ولما اتسمت به من قصـر وسهـولة وما

يتضح فى كثيـر من جوانبها من أنها نظمت عفو الخـاطر بديهة وارتجالا دون تقويم أو تثقيف.

والبحث بذلك كله يفتح صـفحة جديدة فى مباحث الأدب العـربى بعرضه لأول مرة شعر الفتوح الإسلامية ودراستـه دراسة علمية فاحصة تكشف عن جوانبه وطوابعه الإسلامية وخـصائصه الفنية كشفا تاما دقيقـا إلى أبعد حدود الدقة، وقد استطاع به السيد النعمان القاضى أن يحمل أساتذته فى كلية الآداب بجامعة القاهرة على أن يمنحوه درجـة الماچستيـر فى الآداب بلقب ممتاز أرفع ألقـاب النجاح، وأنا أهنئه أخلص التهنئة بما بذل فى بحثه من جهد علمى خصب، وما أدرك به من فوز جدير به. والله ولى الهدى والسداد.

دكتور/ شوقى ضيف

مقدمة

موضوع هذا الكتاب «**شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام**» وهو يتناول الدراسة الفنية فى شعر المحاربين من العرب المسلمين فى فترة مشرقة من فترات تاريخهم، بل لعلها أكثرها إشراقا، فهى الفترة التى تزخر بأسمى المشاعر الروحية الإسلامية، ويتجلى فيها أثر الإسلام عقيدة وفكرة فى نفوس العرب، وفى حملهم على البذل والتضحية والفداء، كما أنها تصور الانقلاب الهائل الذى أحدثه الإسلام عن طريق الارتقاء بالنوازع الوجدانية القبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد، من أجل هدف واحد نبيل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران].

وإلى جانب هذا التمثيل الصادق للأخوة الإسلامية تمثل العرب دينهم خير دين ارتضاه الله لهم، وأن نبيهم الذى بعث فيهم إنما بعث إلى الناس كافة، وأنهم هم ورثته فى هداية هذه الأمم الضالة إلى طريق الحق، وقد خلق هذا فى نفوسهم شعورا متوثبا، لا يقنع بالانطواء على ما تأجج فى صدورهم من ألق العقيدة، فاندفعوا ينتشرون بهذا الشعور خارج حدودهم إلى الشرق والشمال والغرب، لا يأبهون بقوة فى الأرض، وهم على ثقة كاملة من نصر الله لهم، وكلهم أمل فى إحدى الحسنيين، الشهادة أو الظفر.

وشعر الفتوحات الإسلامية فى هذه الفترة يرسم صورة مشرقة للانطلاقة الهائلة الواسعة، التى انتزعت العربى من حيزه الضيق لتطوف به فى أرجاء ممتدة وبعيدة لم يستشرفها من قبل، كما أنه يرسم صورا رائعة للفروسية العربية فى ذلك الإطار الجديد الذى وضعه الإسلام لتقاليدها، وصورا رائعة أخرى للإيمان القوى، والتصديق العميق بما وُعِدَ به المؤمنون المجاهدون، ولصنيع هذا الإيمان بتلك

النفوس؛ من اكتشافها لذواتها، ومعرفتها بقدرها، فراحت من ثم تدك بإيمانها معاقل الأكاسرة وعروش الأباطرة والجبابرة، وتقود ولاياتهم إلى حظيرة الإسلام.

وعلى هذا : فإن شعر الفتح بتصويره للآثار النفسية لما تمثله العرب من روح الإسلام، يكشف فى جلاء عن الأسباب الفاعلة فى انتقال هذه الأمة من ضلال وضعف وتخبط فى عمايات الفتن والتناحر، إلى ما صارت إليه من اقتدار على رسم خريطة جديدة للعالم وقتذاك.

وفضلا عن ذلك يرسم شعر الفتح صورا لبأس المسلمين فى حومات الوغى وزحمات القتال، لا يغادر فى سبيل ذلك معركة أو اشتباكا، حتى ليعد وثيقة تاريخية هامة فى هذا السبيل، تسجل النتائج الناجمة عن الفتوح، من احتكاك بالبيئات الجديدة، وتأثر النفوس العربية المنطلقة بتلك الأجواء الغريبة فى طبيعتها وحياتها، وسبل هذه الحياة، وعما استحدثته فى ظروف البعد عن المواطن الأولى، من استشعار الاغتراب والحنين، وعن هجرة البذور الأولى للشعر العربى إلى الأمصار والمناطق المفتوحة، وتصوير حياة المسلمين فى هذه البقاع، وعلاقاتهم بأولى الأمر فيها قبل استقرار المجتمعات الإسلامية.

وقد عنيت فى هذا الموضوع الذى يتخذ تلك الفترة المهمة من تاريخ الإسلام مسرحا له باستجلاء طبيعة الفتوح ومظاهرها، وطوابع الشعر، وخصائص الشعراء، متوخيا بتلك العناية أن أعرض شعر الفتوح الإسلامية فى معارض شتى، مكسوة بالتاريخ، ومحفوفة بتأثيرات الدين الجديد وروحه ومثله فى نفوس المسلمين، لما لهذه الفترة من ارتباط وثيق بالدين الحنيف، ولما لهذه الفتوحات من صلة وثيقة بروح الأمة الإسلامية فى هذا الزمان، وارتباطها بتصوير مجدها وعزها.

فشعر المعارك الحربية كان أبدا ودائما ولدى جميع الأمم سجل فخرها، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها، وقد اخترت أن تكون رسالتى فى هذا السبيل وسيلة متواضعة للفت أمتنا العربية فى عزة حاضرها وتوثبها إلى مجد ماضيها وعظمته، واجتلاء تصوير الشعر لما اضطلع به المسلمون الأول من واجبات مقدسة ضخمة فى سبيل نشر معتقدهم، وما عانوا فى هذا السبيل من حياة القلق والحركة

والانتشار والتمدد، وما قاسوا من مشقات النزوح والهجرة وأهوال الحروب وقسوة المعارك، والصراع الدامى فى ملحمة لم يعرف تاريخ العقائد لها مثيلا على مر العصور وكَرّ الدهور.

وقد سدد عزيمتى إلى ذلك أن فى الإمكان أن نجتلى فى شعر هذه المعارك - برغم قسوتها- عواطف إنسانية عالية من النجدة والفداء، والإيثار والتضحية، والذود عن العقيدة، والتمكين لها فى إطار من التاريخ، وأن ننظر فى مظاهر الحقائق خلال معارض من الأخيلة والعواطف فنرى الشعر على صنع الخيال وتهويله معربا عن حقائق التاريخ، مبينا عقيدة الإنسان وبساطة إنسانيته وسموها.

ولا شك أن تصوير الشعر لهذا الحدث الفذ فى تاريخ العقيدة الإسلامية ليس إلا تصويرا لجوانب الحياة الإسلامية عامة فى نفس الوقت، إذ إن الحقيقة التى لا جدال فيها أن الفتوح كانت أهم ما شغل حياة المسلمين، سواء من كان منهم تحت ظلال السيوف أو على حافة الميادين، فما من شك فى أنهم كانوا يتنسمون أخبارها، ويترقبون ما يمكن أن تسفر عنه هذه الحركة الهائلة.. فإذا بأنبائها من يوم إلى آخر تطلع عليهم فى أقاصيص ممتزجة بغبار الوقائع وصهيل الخيل وصليل السيوف وصياح المحاربين، وإذا بهذه الروايات تنتشر فى ربوع الديار العربية لتشغل كل اهتمامات المسلمين، ولتصبح زادا لسمرهم، لا يزالون يقصونها ويزخرفونها ويعجبون بها.

ولهذا اندفَعْتُ فى اختيار هذا الموضوع مقدرا أهميته التى تتجلى فى تصوير هذه الاهتمامات، التى استنفدت منازع المسلمين وشغلهم، وتصوير تلك الحياة الوجدانية الثرة، وتلك التجارب الطريفة التى تعرضوا لها فى ظروف جديدة عن حياتهم السابقة كل الجدة، فصاغوها بما تأتى لهم من مشاعر، فكان هذا الشعر الذى يمثل وثيقة تاريخية ونفسية خطيرة فى تاريخ الأدب العربي، من حيث كونه مرحلة حية من مراحله طالما أنكرها الدارسون وتجافوا عنها، ومروا عليها عابرين، لا يكلفون أنفسهم أكثر من أن يعزوا إليها موات الشعر أو خموده وضعفه، لغلبة النشاط الفكرى الإسلامى عليه، نتيجة الاستعاضة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة وتعاليم الدين.

قدرت هذا وتأتّى لى أن أرى هذه المرحلة ليست كما وصفت، وإنما هى فترة حية، لم تستطع الظروف القاسية التى رافقتها من حركة الفتح والهجرات والصراع أن تذهب فيها بالمواهب الفنية للنفس العربيـة التى ألفت الشعر ومرنت عليه، وما كان لهذا التيار المتدفق عبر القـرون من الماضى النفسى والوجدانى البعيد لهذه الأمة أن ينقطع فى هذه المرحلة ليـتصل من جديد، أو يمحى لـيخلقه العـرب فيمـا بعد خلقا آخـر فى عصـر بنى أميـة، على ضخـامة ما رافق هذه المرحـلة من أحداث شملت جوانب الحياة الإسلامية.

ولقد يبدو غريبـا ونحن نعتبر شعر الحرب أناشيـد بطولة الأمة وسجل عزها وخلودها ألا نجـد فى الدراسات الأدبيـة عناية بشـعر الشـعراء المحـاربين فى هذه الآونة، بل إننا لنعجب أنّ كثرتهم مجهـولون ومغمورون، وبعيدون عن الأضواء، ومحرومون من الاحتفال بحيواتهم وشخصياتهم وشعرهم!

ولقد سلكت إلى قصـدى نهج التبويب والتفـصيل والترقيم، معـتمدا على التحليل والتركيب حـينا، والمقارنة والنقد حينا آخر، لاستـجلاء المقومات والطوابع الفنيـة للشعـر، وربطهـا بمسـبباتهـا والأصول الـتى صدرت عنهـا، ونظرت إلى موضوعى الذى آثرته فوجدت أن بعض الدارسين يربطون بين هذا الشعر وبين شعر الملاحم، ويفتـرضون أن هذه الأشـعار المفرقـة ليست إلا ملحـمة فى حـاجة إلى النظم، فكان ضروريا أن أعقد تمهيـدا أقرر فيه حقيقة شعـر الفتح وغنائيته، وأفرق بينه وبين شـعر الملاحم القـصصى الـذى يختلف عنه فى شـروطه وقواعـده، ثم وجدت أن الشروع فى استكناه مـقومات شعر الفتح يـستوجب دراسـة الفتوح ذاتها كـوعاء لهـذا الشعـر، وتلك بدورها بحـاجة إلى دراسـة تلك الدوافع التى انثـال المسلمون بـوحى منها، ينساحـون فى الأرض حاملين فى مـواضع الاعتـقاد منهم الأمن والثقة والأمل بما وعدوا، إلى جانب الدعوة لهذا الدين الذى ارتضوه، وكان على الدارس إزاء هذا أن يتـعـقب هذا الانطلاق فى إطـار التاريخ شـرقـا وغـربا وشمـالا وفى كل اتجاهاته، ليعـرض من ثم لمواكبـة الشعر للأحـداث فى الميادين المختلفة، مـتتبعـا الشعراء ومدى خصـبهم وأصالتهم وأسـباب ذلك، الأمر الذى يستدعى بالضرورة تصنيف الجيوش والإمدادات تصـنيفا يتعقب هذه الأصالة الفنية

وثراء الروح الشعرى بين القبائل، مما سيترتب عليه اختلاف حظوظ الميادين المختلفة فى وفرة النتاج الشعرى أو قلته أو قدرته، ووسم الأمصار الإسلامية فيما بعد الفتوح بهذه الصفات على اختلافها.

وهكذا يذهب **الباب الأول** الذى يعالج الشعر فى الفتوح بفصوله الثلاثة فى هذا السبيل، بينما يذهب **الباب الثانى** الذى يعالج شعراء الفتح فى التعريف بهم، ومناقشة ما يشيع حولهم من مشكلات، سببها تنوعهم وتعددهم بين شعراء قدماء مخضرمين، ومحاربين أنطقتهم الفتوح ولم يكن لهم شهرة بالشعر، ومجهولين ينسب شعرهم لغير قائل.

وكان طبيعيا أن يجد الدارس ضرورة إعطاء نموذج للشعراء المخضرمين الذين أسهموا فى الفتوح بسيوفهم وألسنتهم، كعمرو بن معد يكرب الزبيدى ونموذج آخر للشعراء المؤمنين الخلص الذين أنتجتهم الفتوحات، كالقعقاع بن عمرو التميمى.

وبهذا يذهب **الباب الثانى** بفصوله الثلاثة فى شعراء الفتح، ليعقبه **الباب الثالث** فى فصول أربعة، تعالج فى دراسة فنية مقومات الشعر وطوابعه، فتتناول فى فصل منها أنواعه وموضوعاته، وما تطور منها وما لم يتطور، وما استحدث منها وسبب استحداثه ودواعيه، وتتناول الطوابع الإسلامية فى فصل آخر، تتبين خلاله الآثار الإسلامية فى هذا الشعر، من صدوره عن وجدان الجماعة، والأخوة الجديدة الإسلامية، وروح الدين ومثله، وتصور أحاسيس المحاربين ومشاعرهم الدينية الجديدة، وما تأتى لهم من صياغة المعانى الإسلامية المتعددة فى أشعارهم.

وفى فصل آخر تناولت الدراسة ما وسم هذا الشعر من السمات الشعبية، التى بعثها تعلق المسلمين بأحداث الفتوح ورواياتها وزخرفتها والتغنى بها، وما وجد من شعر مجهول القائل كثير، وعرضت الدراسة لأحاديث البطولة هذه بين الواقع والأسطورة، ولقصص الفرسان المشاهير وتلونها ونموها وتضخمها، كما حاولت الكشف عن هذه الآثار الناجمة عن كل هذا فى الشعر الشعبى.

وأخيرا تتجمع فى الفصل الأخير من هذا الباب الطوابع الفنية الصرفة التى طبعت الشعر، والتى كانت أثرا من الآثار الإسلامية فى الصياغة ونتيجة للظروف المرافقة لولادة هذا الشعر.

وكان ضروريا بعد هذا، أن تُلَخَّص الدراسة تلخيصا موجزا، يكشف عما انتهت إليه وما حاولت أن تحققه.

ويتضح من خلال هذا المنهج: ما تهدف إليه الدراسة من تجلية القيم التاريخية والاجتماعية والفنية لشعر الفتح الإسلامى، والتعريف بشعرائه المجهولين: وتسليط الأضواء عليهم، وتبيين القيمة الحقيقية لهذ الشعر، كجسر عبر عليه الشعر العربى من العصر الجاهلى إلى ما تلاه من العصور الإسلامية.

وإزاء هذا الهدف يجد الدارس نفسه مضطرا إلى دراسة حركة الفتح الإسلامى ذاتها باعتبارها وعاء هذا الشعر، إذ وُجد فيها وزَكَا فى أجوائها، وكان أثرا من آثارها ونتيجة من نتائجها، وفضلا عن هذا فإن الشعر لا يوجد منفصلا عن الفتوح، وهو على كثرته متفرق لا يجمع شتاته جامع، وإنما ينتشر فى تضاعيف كتب التاريخ الإسلامى المختلفة، وكتب الصحابة والفتوح، والجغرافية التاريخية، وكتب الأدب، وهذه كلها كتب لا تعنى بهذا الشعر إلا عناية قريبة، تجعل منه شاهدا لحكاياتها، ومصداقا لسردها الوقائع وقصها الأحداث، أو زينة لها فى أغلب الأحيان.

ونفس الأمر يصدق على حركة الفتح ذاتها، إذ إن الكتب التى تتناولها لا يهمها إلا مجرد سرد الحوادث، دون النفاذ إلى الروح التى تكمن وراءها كعامل مؤثر فى الحياة الإسلامية بعامة، وفى الحياة الأدبية بخاصة . وكذلك لا يهمها أن تكشف النقاب عن هؤلاء الذين قاموا بهذه الحركة، لا تشذ عن ذلك دراسة من الدراسات الأدبية التى تعنى بالعصور المختلفة التى أعقبت الفتوح، فإنها لا تحاول التعرف على حركة الفتح ذاتها، ولا على أولئك الذين اشتركوا فيها وتغنوا بها، وإنما قنعت بأنه كان هناك فتح، ومضت تنظر فيما كان بعد ذلك، دون ربط بين سبب ونتيجة، على الرغم من أنه يبدو منطقيا لمن يدرسون العصور الأدبية التى أعقبت الفتوحات الإسلامية، ولمن يدرسون العصور الأدبية فى الأقاليم الإسلامية

التى هاجر إليها الشعر أن يعنوا بدراسة حركة الفتح الإسلامي، وما تشتمل عليه من البذور الفاعلة من هجرة الدين واللغة والدم.

ولا شك أن المصادر التى تشتمل على شعر الفتح كثيرة ومتعددة إلا أن المتقدمين من العرب عالجوا هذا الشعر لا بسبيل الفن وقيمه، وإنما فعلوا ذلك لغاية التاريخ، وفى مطالب الأحداث التاريخية والتراجم وما أشبه، كما فعل ابن عبد البر ٣٦٨هـ بتأريخه للصحابة تأريخا إجماليا فى «الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» حينما يترجم لمن اشترك فى الفتوح منهم، ذاكرا أثارة من شعرهم إن كان له نصيب من الشعر، ومثله فى ذلك ابن الأثير ٦٣٠هـ فى «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» وإن كانت تراجمه أوسع، ومقدار ما يروى من الشعر أكثر، وعلى مثل هذا سار ابن حجر العسقلانى ٨٥٢هـ فى «الإصابة فى تمييز الصحابة» إلا أن تراجمه أشمل من صنيع سابقيه، وفيها فرصة لإيراد أكثر من رواية للحادثة الواحدة، وإن كان لا يعنى بمناقشة ما يتعارض من الروايات وما يختلف من الأشعار، وبجانب كتب الصحابة هناك كتب التاريخ الإسلامى، وأكثرها اهتماما برواية شعر الفتوح «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير الطبرى ٣١٠هـ وهو يروى الشعر فى ثنايا الوقائع أو فى أعقابها، منسوبا إلى صاحبه أو إلى أحد المسلمين. ومنها أيضا «فتوح مصر» لابن عبد الحكم على ندرة ما يروى من الشعر. وكذلك «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودى ٣٤٥هـ و «فتوح البلدان» للبلاذرى ٢٧٩هـ. وعلى الرغم من قلة ما يرويه من الشعر فإنه ينفرد أحيانا برواية أشعار لا يرويها كتاب غيره، وكذلك «فتوح الشام» للواقدى ٢٠٧هـ و «الأخبار الطوال» وغير ذلك.

وفى الحقيقة أن كثرة شعر الفتوح تقع فى «معجم البلدان» لياقوت، فهو لا يذكر مدينة أو بلدة أو قرية أو محلة للجند إلا ويروى ما قيل فى فتحها من الشعر، ولكنه لا يتحرى فى الأغلب ذكر المناسبة القريبة، ولا يحدد الفتح تحديدا تاريخيا قدر تحريه رواية كل ما قيل فى فتحها بصورة عامة، قد تشمل عصورا متعاقبة، دون أن يفصل بين الأشعار فصلا تاريخيا، مما يضطر الدارس فى أغلب الأحيان إلى التحقق من الشعر ومن قائله، ورد الشعر والشاعر إلى عصريهما.

ومن كتب الأدب التى عنيت بشعر الفتح «الأغاني» وذلك فى تراجم الشعراء الذين كان لهم بلاء فى حركة الفتح، برغم اقتصاره على الترجمة لأولئك المشهورين من الشعراء دون عناية بغيرهم. وكذلك «الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«طبقات الفحول» لابن سلام، وما يرويانه من الشعر قليل إلى جانب ديوان أبى محجن الثقفى، وهو ديوان مفرد، ليس لشاعر من شعراء الفتح ديوان غيره.

هذا فضلا عن كتب أدبية أخرى، لا يجد الباحث فيها غير قصائد قليلة، كذيل الأمالى، والخزانة، وديوان الهذليين، والمؤتلف والمختلف، والمفضليات، والحيوان، وغير ذلك كثير.

هذا عن مصادر الشعر. وقد يفيد الباحث من تعددها فى التحقق من أصالة الشعر، وصحة نسبته إلى صاحبه، أما عن المصادر العامة لحركة الفتح وحوادثه فهى كثيرة ومتعددة أيضا، إلا أنها كثيرا ما تختلف فى تحديد التواريخ التى وقعت فيها بعض المعارك، وقليلا ما تتفق على وقوع معركة فى تاريخ واحد محدد، ونادرا ما تشير إلى تصنيف الجيوش والإمدادات التى انطلقت من شبه الجزيرة إلى ميادين القتال، أو إلى الكيفية التى خرجت عليها فى تصنيفها.

ومهمة الدارس هنا أن يحاول مقارنة الأحداث والوقائع فى الروايات المختلفة فى إطار التاريخ العام، وعلى ضوء ما يروى من الشعر لو كان فى ذلك غَنَاء، وتجميع هذه الآثارات من خلال الموضوعات التى لا تقصد إلى ما يبغى، ولم أطرافها ليكون منها - جاهدا - صورة لتصنيف الجند قريبة من الأصل أو دالة عليه.

وكذلك تصعب مهمة الدارس أمام الاختلاط الذى يصادفه فى حوادث الفتح وتضارب بعضها، فيعكف على تتبع الروايات التاريخية وتنسيقها، وتحرى الدقة فى ترتيبها زمنيا وميدانيا، ووضعها فى إطار الخطة الإسلامية العامة للفتوح.

ويرجع هذا الاختلاط فى حوادث الفتح إلى ما كان من وقوع هذه الأحداث فى أكثر من ميدان فى آن واحد، وإلى أن فتح بعض البلدان قد تكرر أكثر من مرة لانتقاضها وإعادة فتحها من جديد، وبهذا يؤرخ لفتحها مرتين، أو يكتفى بالتأريخ لها فى المرة الثانية دون الأولى، فتضيع الحقيقة ويحدث الاضطراب.

ولا يستطيع باحث فى هذا السبيل أن يجحد قيمة الفائدة التى تعود عليه إذا ما اهتدى خلال هذه الدروب الملتوية بدراسات المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل عن الصديق أبى بكر، والفاروق عمر، فكثيرا ما كانت تكشف اللبس وتزيل الغموض، وتقود إلى الحقيقة فى التأريخ للفتوح، وفى تحديد المواقع والأماكن، تحديدا يساعد على اكتمال الصورة التى يحاول الدارس تكوينها، حتى لا يكون حديثه عنها حديثا مجردا عائما، ولترتبط الأسماء والمواقع بمدلولاتها ارتباطا وثيقا.

بينما كانت مصادر هذه الدراسة فى بابها الخاص بشعر الفتح هى : كتب الصحابة والتاريخ والفتوح والجغرافيا التاريخية والأدب، فإن الباب الثانى الخاص بشعراء الفتح لم يقتصر على الكتب الأدبية الصرفة التى تترجم للمشهورين منهم، وإنما كان من الضرورى الاعتماد على كل ما يمت إلى الفتوح بسبب، من كتب التراجم والصحابة والتاريخ والجغرافية وغيرها.

وقد نظرت لدى محاولة الدراسة الفنية لهذا الشعر واجتلاء مقوماته وطوابعه ــ إلى ما سبقنى إلى هذا الموضوع أو بما يماثله، من دراسات للشعر الحماسى وشعر الحروب، فوجدت أن المتقدمين قد عالجوه بسبيل مطالب أخرى غير الدراسة الفنية، كالتاريخ واللغة فى تفسير كلماتها، أو للإعراب فى مناقشة وجوهه، لا يعنيهم سوى جمعه فحسب، بعد أن يتخيروا أحسنه، دون تصنيف أو تنسيق ينتمى إلى التاريخ أو إلى الفن، ولا يربط بين مختاراتهم سوى وحدة الموضوع.

ومن ثم فإن الباحث فى هذا السبيل لا يجد دراسة بعينها تتعمق فى البحث الفنى فى مقومات شعر البطولة والحرب، وتعنى بالكشف عن طوابعه بعامة، وفى خلال هذه الحركة الهائلة فى تاريخ الإسلام بخاصة.

وقد يصادف الدارس كتابا أو كتابين لبعض الباحثين المحدثين فى هذا السبيل فيظن فيهما غناء، ولكنه لا يلبث أن يصاب بخيبة أمل، فهذا كتاب يدرس (المجتمعات الإسلامية فى القرنين الأول والثانى الهجريين) . ويمهد لهذه الدراسة بدراسة تمهيدية ضافية لحركة الفتح الإسلامى، إلا أنها لا تسلم فى أجزائها

التاريخية مما سار عليه الأقدمـون، وهدف الدراسة التى يقوم عليها الكتاب فى حد ذاته تمهيد لدراسة الظواهر الأدبية المختلفة عن استقرار المجتمعات بعد الفتوح، ومع ذلك ـ فإنها لا تتعرض لشعر الفتح إلا تعرضا طفيفا.

وهذا كتاب آخر يدرس شعـر الحرب فى أدب العرب من صدر الإسلام إلى أبى فراس الحمـدانى، لا يشير إلى الفتح الإسلامى ولا إلى شعـره بكلمة واحدة، برغم أن هذه الدراسة تجـعل شعر الحـرب فى العصر الأمـوى نتاجا لمنازع الحـزبية والتسلط المذهبى وسطوة التاريخ، بينما تجعل شعر الحرب فى العصر العباسى نتاجا خالصا لمنازع الفن وحده بعد تخلخل تلك السيطرة الحـزبية والمذهبية. وكان منطقيا أن يأخذ شعر الفتح مكانه قبل هذين العهدين فى تلك الدراسة كنتاج لتمثل الفكرة الإسلامية حتى تكتمل الصورة التى عنى البحث برصدها.

وإزاء هذا النقص يشعر الدارس لـدى محاولة تقييم هذا الشـعر أن عليه أن يعـتمـد كل الاعتـماد على الانعكاسـات الحرة الطليـقة لهـذا الشعـر، وأن يضع النصوص الشعرية وحدها أمام ناظريه، معتمدا عليها تماما فى استكناه الأبعاد الفنية ومقومات الشعر وطوابعه . وعلى الله قصد السبيل.

النعمان عبد المتعال القاضي

تمهيد

شعر الفتوح وشعر الملاحم

هناك فكرة لا تزال تتردد وتشيع لدى بعض الدارسين، وهى أن الشعر الجاهلى الذى قاله أصحابه فى أيام العرب ليس إلا ملحمة عربية كبرى، وإن كانت مقطّعة الأوصال، وأن فى المعلقات الجاهلية، وفى سائر ما نظم الجاهليون لما يُتنخل منه ملحمة عربية كبرى.

وهذه الفكرة تنسحب لديهم أيضاً على التاريخ الحربى للمسلمين، الذى يبدأ بغزوات النبى ﷺ، وينحدر إلى حروب الفتوح فى ديار فارس وأرض الروم، وسائر الأقطار التى بلغ إليها المسلمون بسيوفهم. فيمثل هذا التاريخ فى زعمهم ملحمة، تتكون من أجزاء ملحمية، تصف المعارك وتوجيه العسكر، وثورة العدو واستجاشة العدة، وترسم صورا للالتحام والكر والفر والإقبال والإدبار، والرمى بالنبل والحجر، والطعن بالسيف والرمح، والخبط بالأعمدة وغيرها. وتصور أيضا ما ينكشف القتال عنه من قهر أو ظفر، أو اندفاع الفائزين بالغنيمة والفخر، وانطواء الخاسرين على تضميد الجروح وإعداد الثأر[1].

ويجد هؤلاء الدارسون ما يؤكدون به زعمهم فيما أثير مؤخرا من دراسات بعض النقاد حول هوميروس وملحمتيه المشهورتين، وما انتهى إليه نفر منهم من الشك فى شخصيته وإنكارها، وما قرره هذا النفر من أن اسمه ليس إلا عنوانا فحسب للطائفة الشعرية التى جمعت من أفواه الأقدمين، وأن هاتين الملحمتين ليستا له بتمامهما. ويظلم هؤلاء الدارسون الذين يعتنقون هذه الفكرة أنفسهم، كما يظلمون الأدب العربى، فى محاولتهم المتعسفة إيجاد ملحمة عربية على صورة من الصور، عندما يذهبون إلى أن كل شعر طال أو قصر، وصفت فيه المعارك، وسردت فيه أخبار البطولة، ورويت فيه ملاحمات الجلاد، هو من شعر الملاحم[2].

ولا يضير العرب فى شىء أن يخلو أدبهم من الملاحم، وليس يفترض فيهم أن يحتفلوا بهذا الضرب من الشعر، فإن كان فاتهم الاحتفال به فما أشد عسف الدارسين

---

(١) «شعر الحرب فى أدب العرب» ص١٧، ص١٨.

(٢) شعر الحرب فى أدب العرب»ص١٦.

الذين يتصيدون لهم فى شعر الحرب ما يزعمون أنه يمت إليه بسبب وثيق، وهو فى الحقيقة بعيد عنه كل البعد؛ ذلك أن الملحمة الشعرية حكاية لأمر خارق عجيب، أو عمل حماسى عظيم، له أثره فى حياة شعب بأسره، وهى فضلا عن هذا سداها الخرافة، ولحمتها التلفيق.

وقد كانت حروب العرب مع الروم والفرس حوادث أساسية خارقة وعجيبة حقا، تناولها الشعراء والرواة والقصاصون، وصنعوا فيها القصائد والأناشيد والحكايات، وربما جسموها بالخيال، وموّهوها بالمبالغة. لكننا لا نستطيع أن نعد هذا من شعر الملاحم فى شىء؛ فشعر الفتوح شعر غنائى، يتغنى فيه المجاهدون بجهادهم وبلائهم، ويفخرون فيه بشجاعتهم وتفانيهم وفعالهم بالعدو. فى حين أن شعر الملاحم شعر قصصى، يعنى بحكاية الأحداث فى إطار من التهويل والمبالغة، والإغراق فى الخيال.

وبينما نجد مؤلف الملحمة أو مؤلفيها يحرصون على الاختفاء من عصورهم ليظهروا فى عصر الموضوع والأبطال الذين تقوم عليهم ملاحمهم، فلا يكادون يذكرون أنفسهم، ولا يكادون يعنون بالتعبير عن عواطفهم الخاصة فيما يقصون من الحوادث، نجد شاعر الفتوح الإسلامية ـ شأنه شأن غيره من شعراء الحماسة ـ لا يملك اختيار موضوع بعينه، وإنما هو يصور ابتداء كل ما يعتمل فى وجدانه ومشاعره، وما يعيش خلاله من أحداث يظهر وجدانه الشخصى فيها ظهورا تاما وأساسيا، فيغنى عواطفه الخاصة فيما يعبر عنه من المشاعر، وما يصوره من الأحداث.

وبهذا يدخل شعره فى باب الشعر الغنائى عن هذا الطريق، بخلاف شعر الملاحم الذى يدخل فى باب الشعر القصصى.

على أنه ينبغى أن نلاحظ بعناية ما يذهب إليه بعض النقاد العرب من المزج بين شعر الملاحم والشعر القصصى مزجا فى باب واحد دون ما تفريق، إذ يعتبرون كلا منهما مثل الآخر[1]، والحقيقة أن الملحمة قَلّما تضم شعرا قصصيا، ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة، فإن جاز أن نسمى كل ملحمة شعرا قصصيا فلا يجوز أن نسمى كل شعر قصصى ملحمة.

(١) «شعر الحرب فى أدب العرب» ص١٤.

على أن هؤلاء الذين يجعلون القصص الشعرى ملحمة يجدون فى الأدب العربى مالا ينقضى جماله، من هذا القصص الكثير. ولكنا لا نستطيع أن نعده شعرا ملحميا فى قليل أو كثير، كما لا نستطيع أن نقبل أن يكون شعر الحرب ـ على إطلاقه ـ من شعر الملاحم كما زعم البعض.

والحقيقة التى لا تقبل الجدل أن العرب لم يحفلوا بالملحمة الشعرية أى احتفال، على الرغم من أننا نجد تاريخهم مملوءا بالغير والأهوال، إذ لم يخل فى أية حقبة من القتال والنزال من سحيق الجاهلية حتى عصورهم الأخيرة.

وليس يجدى شيئا أن يلتمس هذا البعض للعرب أعذارا فى عدم احتفالهم بها، كمثل قولهم: إنه لو كان أمر الملاحم الفنية لديهم مألوفا لورثنا عنهم كثيرا منها[1].

ويبدو هذا الزعم مجانبا للصواب؛ إذ إن العرب عرفو الملاحم منذ استهلال العصر العباسى، فقد كان هوميروس وإلياذته معروفين لديهم بعد نهضة الترجمة فى المائة الثانية للهجرة [2]. ويذكر الشهرستانى عن هوميروس ما يدل على معرفة العرب به، إذ يقول: «أوميروس الشاعر من القدماء الكبار الذى يجريه أفلاطون وأرسطاليس فى أعلى المراتب، فيستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان للمعرفة ومتانة الحكمة، وجودة الرأى وجزالة اللفظ، ثم ترجم مقطوعات من أشعاره بجمل معقودة للكلم على المواعظ والحكم، ذيلها بأن الشعر فى أمة اليونان كان قبل للفلسفة، وإنما أبدعه أوميروس»[3].

ويذكر القفطى: أن حنين بن إسحق كان ينشد أشعارا بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم[4].

وقد ترجمت الإلياذة إلى السريانية فى أيام المهدى، على يد «تيوفيل الرهاوى» غير أن نقل الإلياذة إلى العربية لم يكن هينا يومئذ، لما فيها من أساطير للديانات الإغريقية.

وهكذا لا ينبغى أن نُعِّنت العرب فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة شعرية، أو نحاول أن نتصيد لهم ملحمة أو ما يشبه الملحمة، فى حين نرى ابن الأثير مثلا فى خاتمة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٢١، «طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة/ جـ١ ص١٨٤.

(٣) «الملل والنحل» بهامش الفصل لابن حزم/ جـ٣ ص١٩.

(٤) «أخبار الحكماء» / ص١١٩، «تاريخ الحكماء» ص٦٧.

المثل السائر يتعجب من أنه لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها منظومة كالشهنامة، على أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة فى بحرها.

ولعله يبدو فى جلاء أن العرب لم يعرفوا هذا الضرب من الشعر، حتى فى أوج النهضة الثقافية التى أعقبت حركة الترجمة فى العصر العباسى.

ولعل حبهم للقافية الواحدة يجرى عليها روى القصيدة زَّهدهم فى الملحمة فيما بعد، إذ كانت تقتضى آلاف الأبيات، ومن أين لهم بروى واحد يجرى به الكلام إلفا، زد على ذلك ميل العرب الفطرى إلى الإيجاز، وغلوهم فى اختصار الكلم، والتزامهم مقاطع الجمل القصيرة التى تحمل غزير المعانى، فكان أن لم يحاولوا - إلا فى قليل - زيادة أبيات المطولات على المائة بيت، ذلك لأن شعر العرب يفتقر إلى الروية والفكرة، وهم أهل بديهة وارتجال، لا يعنون بالإلمام بطبائع الناس وأحوالهم، كما أنهم لا يحفلون بالتحليل والتطويل، وهم أشد الناس اختصارا للقول، وأقلهم تعمقا فى البحث. فضلا عن أن دينهم فى بساطته قد حرمهم كثرة الأساطير والخرافات وهى أغزر ينابيع الشعر القصصى الملحمى.

ولكن أملا - بالرغم من كل هذا - لا يزال يداعب بعض الدارسين فى أن يقيض الله للأمة العربية شاعرا يتقدم إلى هذا التاريخ الحافل فيسجله ويصوره، ليكون للمعاصرين ولمن يأتى بعدهم كتاب فخر وسفر مجد، يتلوه الأبناء بعد الآباء[1].

ويذهب هؤلاء الدارسون بعيدا فى أملهم عندما يقررون: أنه لا بد للأدب العربى من يوم ينهض فيه أقوامه إلى جمع ما تشتت من قصائد الشعراء فى وصف الحروب العربية فى الفتوح وغيرها، وما لابس ذلك من وشائج الحياة والموت فى السلم والحرب، فتؤلف الملحمة الكبرى بعون ذلك الشعر.

وهذا ضرب من الأحلام اللذيذة ليس غير. فالعرب كما تقدم لم يعرفوا من فنون الشعر إلا الغنائى منه طوال ماضيهم، حتى إذا كانت العصور الحديثة واتصلوا بالآداب الغربية، وألفوا فنونها من الشعر الملحمى والتمثيلى كانت تلك الفنون الشعرية الكبيرة فى سبيلها إلى الانقراض، فحل النثر محل بعضها كالشعر التمثيلى، على حين انتهى شعر الملاحم، ولم يعد يستطيع الحياة، بعد أن تطورت الإنسانية وأصبحت عاجزة عن

(١) «شعر الحرب فى أدب العرب» ١٩، فى «أصول الأدب» للزيات/ ص٢٢١.

تأتى فيه بما أتى القدماء فى فجر الإنسانية، عندما ازدهر هذا الفن على نحو ساذج، خال من التعقيدات العقلية والفنية، ولعل هذا يفسر فشل الملاحم الحديثة التى حاولها عدد من الشعراء فى اللغات المختلفة، ابتداء من عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر، فطوى الزمن ملاحمهم فى جوف أمواجه، ولم تعد الإنسانية تقرأ وتعجب إلا بالملاحم القديمة، كالإلياذة فى الغرب، والماهبهاراتا والرميانا فى الهند، والشاهنامة فى فارس.

وإن كانت بعض الملاحم قد امتد بها العمر زمنا انتقلت فيه من الأدب الفنى إلى الأدب الشعبى النثرى كما حدث فى ملحمة عنترة، فإن الملحمة الشعبية هى الأخرى آخذة فى الانقراض.

وهكذا يصبح مجرد التفكير فى كتابة الملاحم فى عصرنا الحديث ضربا من المجازفة، يتنافى مع حقائق الأدب المعاصر، بل حقائق النفس الإنسانية فكيف لمثل هذا الشاعر ـ الذى يحلم به هؤلاء الدارسون ـ أن يهيئ فى نفسه تلك الطفولة الغضة، والسذاجة الساحرة، التى يكمن فيها جمال الملاحم القديمة؟!

وجملة القول أن الأدب العربى يخلو تماما من شعر الملاحم بصفاته وشروطه وقواعده المعروفة له، وأن شعر الحماسة ـ بما فى ذلك شعر الفتوح الإسلامية الذى نعنى بدراسته هنا ـ لا يدخل فى هذا الضرب من الشعر لمجرد كونه شعرا حربيا، يعنى بتصوير المعارك والالتحام، كما أنه لا ترتبط بهذا الضرب صلة ما تخول لبعض الدارسين أن يفترضوا أن أشعار العرب المفرقة فى أيامهم ومعلقاتهم، وغزوات نبيهم وفتوحاتهم تكون ملحمة كبرى للعرب؛ ذلك لأن هذه الأشعار فى مجموعها تدخل فى باب الشعر الغنائى، الذى يعنى الشاعر فيه بتغنى عواطفه ووجدان قومه وجماعته كما يشعر به، ويصور أحداثا يعيشها، بينما يعنى شعر الملاحم باستدعاء أحداث خارقة عظيمة قديمة ومغرقة فى القدم، ليحكيها فى إطار من التلفيق والخرافية والتهويل، ويشيع فيها جوا أسطوريا يصور طفولة الأمة فى فجر الإنسانية.

وإن كان قد فات العرب لأسباب معينة أن يحفلوا بهذا اللون فمن العجيب أن نحاول إثبات معرفتهم به بطرق متعسفة، أو أن نحاول الاعتذار عنهم والتماس الحجج لهم، كأنما كان من المفروض عليهم أن تكون لهم ملاحم شعرية.

وسوف نرى أن شعر الفتح قد صور بالرغم من كل هذا أحداث الفتوح ومشاعر الفاتحين تصويرا رائعا، يمكن أن يكون كتاب فخر وسفر مجد، يتلوه الأبناء بعد الآباء.